



الحمد لله الذي جعل في أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من يسمع النصيحة ويهتم بأمر المسلمين.

تساءل كثيرون بعد قراءة المقالة الأخيرة (لست أحراراً في أموالكم يا أيها الأغنياء): ماذا يُنفِّقون؟ ما الواجب على المسلم إنفاقه لكيلا يكون مقصراً في حق أمته، وعلى السوري لكيلا يكون مقصراً في حق بلده وثورته؟

هذا السؤال طرحته مَنْ هو خير مني ومنكم على مَنْ هو خير منا ومن الناس جميعاً، طرحته الصحابة رضوان الله عليهم على نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم: {يسألونك: مَاذَا يُنفِّقون؟}، فلم يُجبهم النبي ولكن أجابهم رَبُّه جَلَّ وَتَبارَكْ جواباً يُتَلَى إلى آخر الزمان، وهو أَعْجَب جواب في القرآن.

هل تعلمون كم مرَّة حَكَ القرآنُ سُؤالَ الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام؟ بضع عشرة مرَّة: {يسألونك عن الأنفال، يسألونك عن اليتامي، يسألونك عن الأهلة، يسألونك عن الروح، إلخ}. ارجعوا إلى تلك الآيات تجدوا أن جواب الله عز وجل لهم كان مفصلاً مطولاً، إلا في هذه الحالة الفريدة، عندما سأله: مَاذَا يُنفِّقون؟ فأجابهم بكلمة واحدة من خمسة أحرف لا غير: العفو.

تعالوا نقف قليلاً عند هذا الجواب العجيب.

في سورة البقرة آياتان ورد السؤال فيهما بصيغة "ماذا ينفقون؟"؛ كان الجواب في الآية الأولى: {قل ما أنفقت من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل}، وفي المرة الثانية كان الجواب: {قل العفو}.

قال المفسرون إن السؤال الأول كان عن جهة الإنفاق والسؤال الثاني عن مقداره، فأجاب في الحالة الأولى بما يناسب السؤال وعدّ أوجه الإنفاق الصالح، وأجاب في الثانية فحدد المقدار: العفو. وروى السيوطي في "أسباب النزول" عن ابن عباس أن نفراً من الصحابة أتوا النبي - لمّا أمروا بالنفقة في سبيل الله - فقالوا: إنا لا ندرى ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق منها؟ فأنزل الله قوله {ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل العفو}.

إنه اختبار الله لأصحاب المال، وقليلٌ من يطيق هذا الاختبار، لذلك جعله الله على الاختيار لا على الفرض والإجبار، فهو مرقة الأخيار في سلم الوصول إلى جنات الخلود.

وما العفو؟ "العفو هو ما زاد عن حاجة المرء من المال، أي ما فضلَ منه بعد نفقته ونفقة عياله بمعتاد أمثاله"، كذا فسره جمهور المفسرين، واللفظ السابق لابن عاشور في "التحرير والتنوير". وقال القرطبي: "المعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم ف تكونوا عالة.

نقل هذا المعنى عن ابن عباس والحسن وقتادة وعطاء والستي وابن أبي ليلى وغيرهم، وقال الكلبي: كان الرجل بعد نزول هذه الآية إذا كان له مال من ذهب أو فضة أو زرْع أو ضرْع نظر إلى ما يكفيه وعياله لنفقة سنة فأمسكه وتصدق بسائله".

واختلف العلماء: هل الآية محكمة أو منسوبة؟ فذهب الجمهور إلى أنها منسوبة - على اعتبار الفرضية - بأية الزكاة، وأنها محكمة على سبيل الندب (في المال حق سوى الزكاة).

قلت: وهو الأظهر والأوجَه، ويدل عليه السياق لأنَّه سياق تحبيب وترغيب: {قل العفو، كذلك يبَيِّنُ الله لكم الآيات لعلكم تتفكرُون في الدنيا والآخرة}.

فإن المعنى في ظاهر النص هو: لعلكم تتفكرُون في الدنيا والآخرة فتحبسون من أموالكم ما يصلحكم في معاش الدنيا وتنتفقون الباقِي فيما ينفعكم في الْعُقبَى. أو أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، فيكون المعنى: لعلكم تتفكرُون في الدنيا وزوالها وفنائِها فتزهدون فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبون فيها (القرطبي، بتصرف).

* * *

إنه اختبار صعب لا يطيقه الأكثرون، ولو قلت إنه هو المطلوب فسوف يزهدون في العطاء من أصله، لذلك فإنني أستدرك فأقول: إن ما سبق هو خطاب الخاصة، وأرجو أنَّ في الأمة منهم كثيرين، ولكنَّه لا يصلح لل العامة، فإنه ثقيل. لتنتفق على الإنفاق ضمن الوسع، عملاً بالآية في سورة الطلاق: {لِيُنْفَقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعْتِهِ، وَمَنْ قُدْرَ عَلَيْهِ رِزْقٌ فَلِيُنْفَقْ مَا أَتَاهُ اللَّهُ، لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}. صحيح أنها نزلت في النفقة الخاصة، لكنها قاعدة صالحة في كل إنفاق والله أعلم.

عندَي أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ ثُمَّ أَنْفَقَ ثُلَّتَ "مَا يَفِيضُ" عَنْ مَصْرُوفِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ جَادَ وَأَجَادَ وَبَلَغَ الْغَايَةَ، أَخْذَتْهُ مِنْ حَدِيثِ سَعْدٍ فِي الْوَصِيَّةِ، قَالَ: "جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْوَدُنِي عَامَ حِجَّةَ الْوَدَاعَ مِنْ وَجْهِ اشْتَدَّ بِي، فَقَلَّتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجْعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرْثِنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي، أَفَأَتَصْدِقُ بِثَلَاثَيْ مَالِي؟" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا. قَلَّتْ: فَالشَّطَرُ (النَّصْف)؟ قَالَ: لَا. ثُمَّ قَالَ: الثَّلَاثَ، وَالثَّلَاثَ كَثِيرٌ. إِنَّكَ إِنْ تَذَرَّ وَرَثْتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِّنْ أَنْ تَذَرَّهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ".

وَمَنْ كَانَ ذَا سُعَةً وَآتَاهُ اللَّهُ الْمَالَ الْكَثِيرَ بِحِبْثَ لَا تَسْتَنْدُ نَفْقَتُهُ الْخَاصَّةُ إِلَّا أَقْلَ الْقَلِيلُ مِنْهُ فَإِنْ حَقُّ الْمُسْلِمِينَ فِي مَالِهِ كَبِيرٌ،
وَلَكِنْ كَمْ يَبْلُغُ هَذَا الْحَقُّ؟ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ حَقًا بِأَنْ كُلَّ دِينَارٍ يَصْرُفُهُ فِي الدُّنْيَا يَجِدُهُ فِي آخِرَتِهِ أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ فَلَنْ يَتَرَكَ
الْتِجَارَةُ الْمُضْمُونَةُ مِنْ أَجْلِ مَغَامِرَاتِ تِجَارِيَّةٍ تُصِيبُ أَوْ تَخِيبُ. مِنْ أَرَادَ الْبَرَكَةَ وَالنَّمَاءَ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ الْأَغْنِيَاءِ فَلِيَصْنُعْ كَمَا
صَنَعَ صَاحِبُ الْحَدِيقَةِ فِي حَدِيقَةِ السَّحَابَةِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَعْنِقَهُ اللَّهُ -بِإِنْفَاقِهِ- مِنَ النَّارِ وَأَنْ يَرْفَعَ بِهِ مَقَامَهُ فِي جَنَّاتِ
الْخَلَوَةِ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِيهِ هَرِيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِفَلَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةِ: أَنْ اسْقِ حَدِيقَةَ فَلَانَ. فَتَنَحَّى ذَلِكُ
السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرَاجٌ مِنْ تِلْكُ الشَّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ. فَتَتَّبَعَ الْمَاءُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَةِ
يَحْوِلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ.

فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا اسْمُكَ؟

قَالَ: فَلَانُ (اللَّا سَمِعَهُ فِي سَحَابَةِ).

ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَمْ تَسْأَلِنِي عَنْ اسْمِي؟

قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي سَحَابَةِ الْمَذْكُورَ هَذَا مَأْوَهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فَلَانَ، وَذَكِّرْ اسْمَكَ فَمَا تَصْنُعُ فِيهَا؟

قَالَ: أَمَا إِذْ قَلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظَرَ إِلَيْهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصْدِقُ بِثَلَاثَةِ، وَأَكْلُ أَنَا وَعِيَالِي ثَلَاثَةِ، وَأَرْدَ فِيهَا ثَلَاثَةِ". وَفِي لِفْظِهِ: "فَإِنِّي
أَجْعَلُهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَاثٍ، فَأَجْعَلُ ثَلَاثَةِ لِي وَلِأَهْلِي، وَأَرْدَ ثَلَاثَةِ فِيهَا، وَأَجْعَلُ ثَلَاثَةِ لِلْمَسَاكِينِ وَالسَّائِلِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ".

عَلَى أَنَّ الْحَاجَةَ تَتَفَاقَّوْتُ بِحَسْبِ حَالَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَلِيَسْتَحِلِّ الْحَاجَةُ فِي كُلِّ الْأَزْمَانِ سَوَاءً. فَإِنْ كَانُوا فِي غَنَاءٍ وَرَخَاءٍ فَلَا تَثْرِيبٌ
عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَقَ الْقَلِيلُ، أَمَا إِذَا كَانُوا فِي شَدَّةٍ وَلَاؤِهِ كَيْوَمُ الْعَسْرَةِ فَإِنَّ الْقَلِيلَ لَا يَكْفِي. وَلَا أَرَانَا نَعِيشُ الْيَوْمَ فِي سُورِيَا إِلَّا ظَرْوَفًا
كَظُرُوفِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ فِي يَوْمِ الْعَسْرَةِ.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمْرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِالصِّدْقَةِ؛ فِي حَدِيقَةِ عُمَرَ: "أَمْرَنَا أَنْ نَتَصْدِقُ"، وَلَيْسَ "حَتَّى" أَوْ
"شَجَعَنَا"، وَالْأَمْرُ -فِي مَثْلِ هَذَا الْمَقَامِ- يَفِيدُ الْوَجُوبَ لِعَدْمِ وَجْدَ قَرِينَةِ صَارِفَةٍ أَوْ مُخَصِّصَةٍ.

لَقَدْ كَانَ مَوْقِفًا تَضَامِنِيًّا وَجَبَ عَلَى الْجَمَاعَةِ كُلَّهَا أَنْ تَتَعَاوِنَ فِيهِ وَأَنْ يَسْاهمَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَا يُسْتَطِعُ، فَجَاءَ الْأَمْرُ بِالصِّدْقَةِ
بِعُمُومٍ وَإِطْلَاقٍ، لَمْ يَحُدُّ حَدًّا وَلَمْ يَقْدِرْ قَدْرًا، وَإِنَّمَا تَرَكَ الاِخْتِيَارُ لِصَاحِبِ الْمَالِ زِيَادَةً فِي الْاِخْتِيَارِ، فَرَأَيْنَا مَنْ قَدِمَ مَالَهُ كُلَّهُ
كَأَبِي بَكْرٍ (وَمَنْ يَطِيقُ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي بَكْرٍ؟) وَمَنْ قَدِمَ نَصْفَهُ كَعُمَرَ (وَمَنْ يَطِيقُ أَنْ يَكُونَ كَعُمَرًا؟) وَمَنْ جَهَّزَ وَحْدَهُ نَصْفَ
الْجَيْشِ كَمَا صَنَعَ عُثْمَانَ الَّذِي اسْتَحْقَ دُعَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ وَشَهَادَتُهُ الْعَظِيمَةُ فِيهِ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُثْمَانَ مَا تَقْدِمُ
وَمَا تَأْخِرُ، مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا صَنَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ".

مَا أَشْبَهُ الْيَوْمَ بِيَوْمِ الْعَسْرَةِ؛ كَمْ مِنَ الْعُثْمَانِيِّينَ نَحْتَاجُ فِي هَذَا الْيَوْمِ إِلَى الصَّيْبِ!

* * *

إِنَّ الْمَالَ عَزِيزٌ عَلَى النَّفْسِ حَبِيبٌ إِلَيْهَا: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}، وَمَنْ هُنَا كَانَ إِنْفَاقَهُ امْتِحَانًا لِمَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ مُسْتَخْلَفِينَ
فِيهِ: {وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ -عَلَى حِبَّهِ- مَسْكِنًا وَبَيْتِمًا وَأَسِيرًا} (أَيْ عَلَى حِبِّ الْمَالِ، وَهُوَ الْمَعْنَى الظَّاهِرُ الْمُتَفَقُ مَعَ الْآيَةِ
الْسَّابِقَةِ، اخْتَارَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ) بَلْ هُوَ مِنْ أَصْعَبِ الْامْتِحَانَاتِ: {لَنْ تَنْالُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مَمَّا تَحِبُّونَ}، فَجَعَلَ إِنْفَاقَنَا مِنَ
الْمَالِ الَّذِي نَحْبَ شَرْطًا لِحَصْولِنَا عَلَى الْبَرِّ الَّذِي نَرِيدُ.

والعمدة في الباب قوله تعالى في آية البقرة: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُؤْتُوا وَجْهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرُقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكُنَّ الْبِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرَةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ، وَأَتَى الْمَالَ -عَلَى حِبَّهِ- ذُوِّي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ، وَأَفَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ} إلى آخر الآية.

قال القرطبي في التفسير إن الزكاة ليست هي المقصودة بإيتاء المال على حبه لأنه جاء بعدها إقامة الصلاة وإيتاء الزكوة، فدل على أن قوله {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حِبَّهِ} ليس في الزكوة المفروضة. ثم قال: "وأتفق العلماء على أنه إذا نزلت بال المسلمين حاجةً بعد أداء الزكوة فإنه يجب صرف المال إليها.

قال مالك رحمة الله: يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم. قال القرطبي: وهذا إجماع أيضاً.

يا أيها الناس: إذا أوجب العلماء الإنفاق ولو استنفد المال كله لفڪاك أفراد من المسلمين من أسر لعله طال أياماً أو أسبوعاً، فماذا نقول في فڪاك شعب كامل من أسر استمر نصف قرن من الزمان؟

المصادر: